المجلة التاريخية الجزائرية | المجلد:04، العدد: 01، جوان 2020. العدد التسلسلي:13 . ص40-56
ISSN:2572-0023 | Volume: 04-N: 01, June 2020- S/ N 13. p40-56

التواصل بين المغرب والسودان منذ العصر الحديث وأثره على التنوع الثقافي والحضاري

Communication between Morocco and Sudan since the modern era and its impact on cultural and civilizational diversity

د/ آدم محمد حسن أبكر *
جامعة نيالا–السودان
Kabas14@gmail.com

معلومات المقال/History of the article		
الإرسال/Received	المراجعة/Accepted	القبول للنشر/Published
2020/01/08	2020/02/27	2020/06/30

الملخص:

عرفت العلاقات السودانية المغربية تطوراً كبيراً وازدهاراً على مر العصور وفي شتى المجالات، ولم تقف الحواجز الطبيعية حاجزا دون الاختلاط الثقافي والاجتماعية بين شمال الصحراء وجنوبها، أسهمت الفتوحات الإسلامية في رفع هذا التواصل وكان له الأثر الكبير في تعضيد الوشائج وبروز الحركة الثقافية المتأثرة بالعقل المغربي. تهدف الدراسة إلى إبراز العلاقات الثقافية بين سودان وادي النيل والمغرب على ضوء معطيات التواصل التاريخي البشري والثقافي بين المنطقتين والتي يمكن تحديدها بعناصر: التعرف المغاربي على سودان وادي النيل، والهجرات المغاربية لسودان وادي النيل التي كان من نتائجها الوجود المغربي المؤثر في السودان. الذي أصبح عنصر تلاقٍ بين المنطقتين، وفي القرن التاسع عشر ومع دخول الجيش التركي السودان وفي معيته الجنود والعلماء والموظفون المغاربة، شكَّل هؤلاء أساس الحوار الثقافي بين المنطقتين، ولعل العامل الرئيسي للعلاقات الثقافية السودانية– المغاربية هو دخول الإسلام وانتشاره في المنطقتين باعتباره العامل الرئيسي للتواصل بين المنطقتين.

الكلمات المفتاحية: المغرب ، السودان ، الثقافة ، الصحراء ، وادي النيل.

* المؤلف المرسل/The author of the sender
Dr/ Adam Mohamed Hassan: University of Nyala-Sudan.
Email: Kabas14@gmail.com

Abstracter:

The Sudanese-Moroccan relations have developed significantly over the years. In all fields, natural barriers have not been a barrier without social, cultural and social interaction between the north and south of the Sahara. The Islamic conquests have contributed to the enhancement of this connection. The study aims to highlight the cultural relations between the Nile Valley and Morocco, in light of the historical and human cultural data between the two regions. These can be identified by elements such as Maghreb identification of the Nile Valley Sudan and the Maghreb migrations of the Nile Valley, which resulted in the influential Moroccan presence in Sudan. Which became an element of convergence between the two regions. In the 19th century, with the entry of the Turkish army into Sudan and with the help of the Moroccan soldiers, scientists and staff, they formed the basis of the cultural dialogue between the two regions. The main factor of the Sudanese-Maghreb cultural relations is the entry of Islam into the two regions. Both regions. Study Methodology: The study was based on the historical and descriptive method for collecting and analyzing information. The study reached the following results: First, the cultural relations between the eastern Sudan and Morocco, the relations between the islands. Second: The Maghreb influence is culturally and culturally clear in Indigo Sudan. Thirdly, Islam strengthened cultural relations between the two countries. Recommendations of the study: First: Conducting studies in support of cultural communication between the two countries. Second: Collect the historical and cultural heritage between the two countries in one museum.

Key words: Morocco, Sudan, culture, desert, Nile Valley.

أهداف الدراسة:

-إبراز علاقات التواصل بين سودان وداي النيل وبلاد المغرب.

-التعرف على العلاقات الثقافية بين البلدين.

-توضيح دور الفتوحات الإسلامية في رفع التواصل السوداني المغاربي.

-التعريف على أثر الهجرات المغاربية في التواصل مع سودان وادي النيل.

-إبراز مكانة المذهب المالكي في التواصل الثقافي المغاربي السوداني

مشكلة الدراسة:

تتمثل مشكلة الدراسة في السؤال الرئيسي في معرفة التواصل السوداني المغارب ومدى أثره على التنوع الثقافي والحضاري وتتفرع لأسئلة فرعية كالاتي:

1- ما العلاقات السودانية المغاربية؟

2- ما الأثر المغاربي الحضاري على سودان وادي النيل؟

3- التواصل بين البلدين ومدى أثره على التنوع الحضاري والثقافي؟

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي والوصفي بغرض جمع المعلومات وتحليلها.

أولا/ الصلات التاريخية بين بلاد المغرب وسودان وادي النيل

بدأت الصلات والوشائج بين بلاد المغرب الكبير والسودان النيلي منذ القدم وترسخت جذورها قبل المد الإسلامي بحركة التجارة لاسيما القرن السابع الميلادي، ومن الراجح لدى الباحثين أن سكان المغرب الأصليين من البربر في الشمال الإفريقي يماثلون النوبة والبجة من سكان سودان وادي النيل القديم عرقا ولغة. تنسب لغتا البجة والبربر إلى المجموعة الكوشية، وقد أسهمت الفتوحات الإسلامية في رفع هذا التواصل وكان له الأثر الكبير في تعضيد الوشائج وبروز الحركة الفكرية المتأثرة بالعقل المغربي.

وعندما خرج العرب من الأندلس وسدت أبوابه في وجه المسلمين عام 1492 اتجه المغاربة ومن عززهم من المسلمين نحو بلاد السودان في عهد المنصور السعدي وكان هذا التوجه هو الذي مزج المغرب ببلاد السودان مزجا حقيقيا أثمر تواصلا ثقافيا وفكريا مع أن السودان لم يكن في دائرة اهتمام المغرب سياسيا أو اقتصاديا وإنما كانوا يعبرون لأداء فريضة الحج، وبالرغم من أن مصر نقطة تجمع مهمة للحجيج والعلماء القادمين من بلاد المغرب عبر الطريق الموازي لساحل البحر الأبيض المتوسط إلا أن الخطر الصليبي جعلهم يتخذون الطريق البري عبر ميناء عيزاب طريقا رئيسيا للحج وقد أسهم ذلك التواصل في إشاعة الحركة الفكرية عبر المخطوطات القرآنية ورواية ورش ثم كتب الصحاح في الحديث النبوي بالإضافة إلى سيرة ابن هشام وكتاب

الشفاء للقاضي عياض ورسالة أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي ومختصر خليل بالإضافة إلى مدونة سحنون في الفقه المالكي فضلا عن تأثر السودان التصوف[1].

البربر تسربوا إلى السودان عبر مصر بعدما خالطوهم وصاهروا العرب خاصة قبيلة كتامة والتي شكلت مجموعات جديدة تحت مسميات مختلفة ومن هذه المجموعات الهواوير الذين يعيشون في منطقة دنقلا بشمال السودان والمعروفون بتربية الإبل وكانوا يحافظون على انتماءهم المغاربي وتسميتهم البرابرة أما المجموعة الثانية فهم "الجلابة هوارة" والذين وفدوا إلى كردفان واستوطنوا فيه لاسيما في المنطقة بارا والأبيض وأم راوبة. وقد جعل بعض النسابة السودانيين لهذه المجموعات كيانا قبليا واحدا باسم قبيلة المغاربة وسميت إحدى المدن باسمهم وهي مدينة بربر وقد تواصلت هجراتهم مع جيش محمد علي عند غزوه للسودان في صحبة الجيش التركي المصري[2].

هذا التواصل قاد إلى عملية تلاقح ثقافي وتصاهر اجتماعي عزز من العلاقات بين القادمين والقدامى، ويعتبر كتاب طبقات ود ضيف الله من أهم المصادر التي أسهمت في رصد الأعلام والأولياء والحكام في تلك الفترة، تمثل المصاهرة عموما حلقة مهمة من الحلقات التي تمر من خلالها عمليات التفاعل بين ثقافتين. وللتزوج دور مهم في توسيع وانتشار مجال العلاقات والمبادلات بين البلدان والشعوب، إذا ما كان للعلاقات الثقافية بين السودان وبلاد المغرب أن تزدهر وتصبح على ماهي عليه في الوقت الحاضر لولا الحراك الاجتماعي ذات الوسائل المتعددة...[3]. إن تطور العلاقات الثقافية بين بلاد المغرب والسودان النيلي وما بلغته من حجم هائل اليوم يعود إلى حد كبير، إلى الإمكانات الكبيرة التي وفرتها علاقات المصاهرة والتزاوج تلبية لاحتياجات هذه العلاقات.، لقد كان ولا يزال هناك ترابط وثيق بين تطور علاقات الجوار وتطور التفاعل الثقافي، وسيستمر هذا الترابط بشكل أوسع كلما توسعت علاقات الجوار وتعددت ميكانيزماتها[4].

أن التواصل الثقافي بين الشعوب المغربية والسودان الشرقي بمعناه التاريخي قديم وعميق، يبدأ موضوعيا منذ الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي، أن التواصل بين العرب والأفارقة ليس العلاقات السياسية أو القانونية أو الأمنية أو الاقتصادية أو العسكرية فقط،

وإنما هو التواصل الشعبي أولا وأخيرا.. إنه التواصل الذي يتجسد في النفوس لا في النصوص ، فالوحدة الشعبية هي أساس كل وحدة أخرى، وأي وحدة أو تكامل لا يرتكز إلى الوحدة الشعبية لا بد من أن تنفصم عراه مهما طال الزمن، وأخيرا لا بد من إقامة علاقات على مستوى القيادات الرسمية والشعبية على درجة عالية من الثقة، لأنه في جو من الثقة يمكن الوصول إلى التكامل والوحدة وإلى حل، لأكثر المشاكل تعقيدا، أما في حال انعدام الثقة فإن أبسط المشاكل تصبح شديدة التعقيد.[5] يرى الباحث إن الصدق واحترام النفس هما حجر الزاوية في تطوير علاقات التواصل بين القيادات العربية والإفريقية، وأن الذين لا يعتمدون عليهما سرعان ما يضعون أنفسهم، ويضعون الجهات التي يمثلونها في مأزق شديد.

ثانيا/ منافذ الهجرات لسودان وادي النيل

اتخذت تلك الهجرات عدداً من المنافذ، ظلت ترد عن طريقها القبائل العربية باتجاه بلاد النوبة والسودان.

1- المنفذ الشمالي عبر النيل، وبمحاذاته من مصر

عرفت المنطقة هذا المنفذ منذ قديم الزمان؛ إذ إنه كان يمثّل الطريق التجاري الذي يربط مصر بوسط إفريقيا وبلاد النوبة والبجة، وازدادت أهميته بعد توقيع المعاهدة، حيث كفلت بعض بنودها للتجار والمهاجرين والقوافل حقّ التحرك الحُرّ فيه، وأعطتهم أماناً للتوغل في أعماق البلاد، وأصبح مدخلاً للقبائل العربية إلى بلاد النوبة [6].

2- المنفذ الشمالي الغربي، أو الطريق الليبي

سلكته القبائل العربية في هجرتها نحو بلاد النوبة والسودان، بعد أنّ تمكن الإسلام في معظم المناطق الشمالية من القارة الإفريقية، ويسير باتجاه السهول والبراري الواقعة بين النوبة وكردفان ودارفور، وقد ازدادت شهرته بعد أن قامت في مصر وشمال إفريقية دول إسلامية مستقلة عن الخلافة العباسية، ولم يكن له دور فاعل ومؤثر في حركة الهجرة نحو بلاد النوبة لجفافه وصعوبته، بسبب الصحراء، وقلّة الماء؛ على أنه كان هناك عدد من الطرق والمنافذ سلكتها القبائل العربية من هذا الاتجاه، ومنها الطريق الذي يبدأ من شنقيط وينتهي إلى تمبكتو، فجاو، وزندر، وكوكوا،

وبيدا، ومسنيا، وأبشي، والفاشر، ثم يخترق سهول الجزيرة، حتى ينتهي إلى سواكن، وقد اشتهر هذا الطريق لكونه قد رفد بلاد السودان والنوبة بأعداد كبيرة من العلماء والدعاة الذين ساهموا مساهمات كبيرة في نشر الدعوة الإسلامية، وتوطينها في تلك المناطق [7].

ثالثا/ أهم الآثار الثقافية للهجرات العربية بسودان وادي النيل

ظلّ سجل الثقافة النوبية حتى دخول العرب – المسلمين – بأعداد كبيرة يتأرجح في تفاعل بين ثقافتي الزنوج والحاميين من جهة، وما طرأ عليها من مؤثرات خارجية على رأس الأثر المغربي من جهة أخرى. وبازدهار هذه العلائق التجارية؛ توغّل التجار جنوباً، وأثروا تأثيراً حضارياً كبيراً، وقد تجلّى ذلك في كثير من مظاهر الحياة النوبية في جانبها الثقافي والحضاري [8].

فقد جابهت الثقافة الإسلامية في إفريقيا المشكلة نفسها العامّة التي جابهتها الثقافة الإسلامية في العصور الوسطى، وهي مشكلة أو ظاهرة الالتقاء الثقافي، بل هي المشكلة نفسها التي تواجهها الحضارات الإنسانية عموماً حين تلتقي وتختلط وتتبادل التأثيرات، هذا الالتقاء أظهر طرازاً من الحضارة الإسلامية متأثراً في طابعه العام ببعض هذه الثقافات، أي أنّ ذلك يعني أنّ الإسلام أخذ وأعطى، ومن هذا الأخذ والعطاء ظهرت الحضارة الإسلامية في إفريقيا[9].

بالإضافة لهذه الجهود كانت هناك جهود بذلها الدعاة الذين حملوا هم الدعوة, ونقلوا كثيراً من مظاهر الثقافة الإسلامية للنوبيين، والتاريخ مليء بالشواهد الدالة على مدى توفيقهم في دعوتهم، ولذلك أسباب، منها حماسهم الديني، وما اتصف به الإسلام من بساطة ووضوح، وإضافة إلى أنهم في كثير من الأحوال كانوا يصاهرون القبائل الوثنية، فيعينهم حقّ الأم على توطيد مراكزهم في الأسر، وقد ساهمت كل تلك العوامل في نشر الثقافة الإسلامية وسط أهل النوبة المسلمين الذين تأثروا بها تأثّراً مباشراً، بل تجاوز هذا التأثير الإسلامي هؤلاء المسلمين إلى غيرهم من الذين بقوا على نصرانيتهم وإلى الوثنيين منهم[10].

وهذا لا يعني أنّ الثقافة الإسلامية قد قضت تماماً على الموروثات الثقافية النوبية، إذ إنّ ما حدث كان نوعاً من التأثير الثقافي من حضارة قوية وافدة على حضارة نصرانية ضعيفة، تتخللها بعض الموروثات من العادات والتقاليد الوثنية الضاربة في أعماق البلاد، لذلك لم تتخل

النوبة عن كلّ ما هو قديم وتليد، لأنّ ذلك فطرة الإنسان من حيث هو كائن، يرعى تراث الآباء والأسلاف ويفاخر بما خلّفوه له، بل ينظر إليه على أساس أنه تراث يجب حفظه، والدفاع عن بقائه، إضافة إلى أنّ الإسلام لم يطلب من الذين اعتنقوه وأقبلوا عليه التخلّي عن كلّ موروثاتهم القديمة ما دامت لا تتعارض مع تعاليم الإسلام، وقد أبقى ﷺ على بعض من عادات العرب في الجاهلية ما لم تكن مخالفة لتعاليم الإسلام –، بل إنه أثنى على بعض تلك الموروثات، وأشار إلى أنه لو دُعي إليها في الإسلام لاستجاب وشارك فيها، مثل (حلف الفضول) الذي حضره الرسول ﷺ في دار عبد الله بن جدعان بمكة المكرمة[11].

إضافة إلى أنّ منهج الإسلام في التعامل مع ذلك الموروث هو العمل على تهذيبه، وتنقيته مما يتعارض مع الدين، وهذا ما حدث في كل المناطق التي أقبلت على الإسلام في إفريقيا، ونشأت بذلك بيئات حضارية محلية، لكل بيئة مقوماتها الخاصة، واتجاهاتها الخاصة كذلك، ولكن تجمعها في إطار واحد صفات إسلامية مشتركة من وحدة الدين، واللغة, والمثُل، ويمكن أن نسمّي ما حدث في النوبة نوعاً من الملاءمة – أو المثاقفة – بين المحلّي الموروث وبين الإسلامي المكتسب، وقد تبدّت بعض مظاهر تلك الثقافة الوليدة عند سلاطين إفريقيا الغربية في طريقة جلوس السلطان للمظالم، وفي لباسه، وفي المحطين به، واستخدام الطبول المصنوعة من القصب والقرع، إضافة لما ذكره بعض المؤرخين الذين شهدوا تلك الممالك، ومن وصف للقصر ولحياة السلطان، واستخدامه لبعض المناصب والمصطلحات الإدارية، مثل: نائب السلطان، والفرادية الأمراء، والترجمة، وقد أشار بعض المؤرخين إلى تفشي هذه الظواهر نفسها عند السلاطين الذين ورثوا الممالك النوبية، فيبدو الأثر الإسلامي واضحاً في عاداتهم وأخلاقهم، وفي الألقاب، والنُّظُم والرسوم[12].

أيضاً من مظاهر تأثّرهم بالثقافة الإسلامية ما عُثر عليه في منطقة مينارتي – شمال دنقلا– من كتابات عربية على شواهد بعض القبور، تحمل أسماء عربية في القرنين الثاني والثالث الهجريّين، وفي منطقة كلابسة ترجع إلى سنة 317هـ/ 927م، كما عُثر في المنطقة نفسها على مقابر نوبية عليها كتابات باللغة القبطية، تحمل تاريخاً مزدوجاً من التقويمين: القبطي، والهجري، ويبدو أنها من آثار جاليات عربية، ثبت أنها استقرت هناك من القرن الثالث الهجري، بل تظهر

بعدها كتابات لا تحمل سوى التاريخ الهجري، وإذا كان هذا الأثر الإسلامي قد تبدّى فيما كُتب على شواهد القبور هذه، فإنه يتوقّع أن يكون هذا الأثر قد صاحب كلّ المراحل التي تمر بها جنازة المتوفى، بدءاً من غسله وتكفينه حسب السنّة النبوية، ثمّ الصلاة عليه، فانتهاءً بدفنه في اتجاه القبلة. ومن مظاهر انتشار الثقافة الإسلامية وسط النوبيين اتخاذهم للأسماء العربية، وتسميتهم بها، فتتحدث المصادر عن أنّ حاكم إقليم الجبل النوبي اسمه قمر الدولة كشي، وعن بعض علماء المسلمين من النوبة، مثل: يزيد بن أبي حبيب، وذو النون المصري (النوبي الأصل)، وتحية النوبية الزاهدة، وغيرهم ممن تسمّوا بالأسماء العربية بدلاً من اتخاذهم الأسماء النوبية.

كذلك من المؤثرات الثقافية التي انتقلت إلى النوبيين من المسلمين اتخاذهم الحوادث التاريخية الشهيرة مناسبات، يؤرخون بها، إذ كان العرب يؤرخون بالحوادث العظيمة في حياتهم، كسيل العرم، وبناء الكعبة، وحرب البسوس، ويوم حليمة، وغيرها، فاتخذ النوبيون والعرب المستعربون في بلاد النوبة حوادث: كسنة البعوضة، وسنة الفار، وقتلة العقال، وأصبحوا يؤرخون بها، وفي مجال العقوبات والجنايات بدا الأثر الثقافي الإسلامي واضحاً في حياة النوبيين الذين كان من أعرافهم الاجتماعية طرد مَن يرتكب جريمة السرقة من القرية، إضافة إلى أنّ النوبي كان إذا خامره شك في زوجته حملها ليلاً إلى النهر وأغمد مديته في صدرها، ثم يقذف بها في النيل، بينما أنه في حالة الطلاق يستولي على جهاز مطلقته، ثم يحلق رأسها، ووجود هذه الشرائع والأعراف في المجتمع النوبي يؤكّد ضعف الأثر النصراني في البلاد، إذ أنها شرائع وأعراف تتنافى مع التعاليم النصرانية وشرائعها، إلا أنهم سرعان ما تأثروا بشريعة الإسلام، وآدابه في التعامل مع هذه المواقف، والجنايات، فتقلّصت إلى حدٍّ كبير تلك الثقافات الوثنية التي ظلت سائدة تحكم الحياة النوبية وتوجهها [13].

هذا ولم يقف أثر الثقافة الإسلامية على عامّة النوبيين فحسب، بل نجده قد تجاوزهم إلى ملوكهم وحكامهم الذين عرفوا الكثير عن الإسلام وأركانه، وفرائضه، وسنن الرسول ﷺ، وعن سيرته ﷺ، وعن أنساب القرشيين وقرابة الصحابة، والأسر الحاكمة بعضها من بعض، فيتضح ذلك من نصّ الحوار الذي دار بين عبيد الله بن مروان بن محمد (آخر الولاة الأمويين على

مصر)، حين فرّ إلى بلاد النوبة خوفاً من العباسيين الذين أرسلوا في طلبه، وبين ملك النوبة حين علم بقدوم عبيد الله ودخوله أرض بلاده، إذ يبدو الأثر الإسلامي واضحاً في سؤال الملك النوبي لعبيد الله عن: "كيف سُلبتم ملككم، وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم؟"، فقال عبد الله: "إنّ الذي سلب منا ملكنا أقرب إلى نبينا منا (يقصد بذلك بني العباس)"، قال له ملك النوبة: "فكيف أنتم تلوذون إلى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حرم عليكم من الخمور، وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم، وتركبون في سروج الذهب والفضة وهي محرمة عليكم، ولم يفعل نبيكم شيئاً من هذا".

كما أنّ النوبيين كانوا ينظرون إلى المسلمين على أنهم أصحاب حضارة وثقافة أرقى وأسمى، فما كانوا ليترددوا في الإقبال عليها والأخذ منها، ومما يؤكد نظرتهم تلك مبادرة الملك النوبي إلى يد الأمير عبيد الله وتقبيلها حين التقيا (111)، بالرغم من أنّ عبيد الله لم يكن رأس الدولة الإسلامية، وإنما هو أمير من الأمراء، أو والي من الولاة، بينما كان النوبي ملكاً على البلاد كلها[14].

رابعا/ الأثر الثقافي والحضاري المغاربي على سودان وادي النيل

للعلماء المغاربة إسهامات في سودان وادي النيل ورغم مجيء أولئك العلماء، ورغم جهودهم التي بذلوها لتعليم الناس أمور دينهم، إلا أن الجهل بالإسلام كان غالبًا، ذلك أن البلاد كانت في حالة من الفوضى السياسية والاجتماعية التي لم تنقشع إلا بقيام سلطنة الفونج التي ملكت بلاد النوبة وتغلبت عليها أول القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وحين وطد الفونج أركان ملكهم متحدين مع العبدلاب، ولد نوع من الاستقرار السياسي مهد لنشر الدين الإسلامي بطريقة أعمق وأشمل مما كان عليه الحال في الماضي، فتمكن بعض السودانيين من الهجرة إلى مصر والحجاز طلبًا للعلم كما أن عددًا من العلماء والمتصوفة وفدوا إلى السودان بتشجيع من ملوك الفونج والفور الذين أغدقوا عليهم الهبات، وأخذ هؤلاء العلماء يشرحون للناس أمور دينهم، ويبينون لهم ما يتعارض مع موروثهم الوثني والمسيحي، وقد غلب على هؤلاء الرواد من العلماء والفقهاء الوافدون من مصر والحجاز ومن بلاد المغرب الطابع الفقهي والصوفي[15].

وقد نتج عن كل ذلك انخراط معظم أهل السودان في سلك الطرق الصوفية، وحدث أيضًا تلاقح واضح بين المنهج الفقهي والمنهج الصوفي، الأمر الذي وضع النواة الأولى للثقافة الإسلامية في السودان، والتي اتسمت بسمة الفكر الصوفي الذي كان متفشيًا في العالم الإسلامي آنذاك، وقد أصبح التصوف وسيلة هامة لنشر تعاليم الإسلام ليس في السودان وفي مملكة الفونج على وجه التحديد بل في أجزاء كثيرة من آسيا وإفريقيا وقد قام رجال الطرق الصوفية بدور كبير في نشر العقيدة الإسلامية وتعميق مفاهيمها، وأهم هذه الطرق: القادرية، والشاذلية، والسمانية، والختمية.

وقد اتبع رجال الطرق الصوفية منهجًا مبسطًا لنشر العقيدة، يعتمد على التلقين، ومداومة الأذكار، كما استعملوا الطبول والمدائح والترانيم مما حبب العامة في الانخراط في سلك الطرق الصوفية، كما كان نجاحهم يعتمد على ما يتمتعون به من علم، وخلق ديني وورع وزهد وصلاح، الأمر الذي حببهم إلى العامة وإلى الملوك والسلاطين، وقد حظي رجال الطرق الصوفية مثل العلماء بحظوة الحكام ودعموهم ماديا [16].

وقد اهتم العلماء والفقهاء الأوائل بتدريس القرآن الكريم ومبادئ الفقه والتوحيد في إطار مذهب الإمام مالك الذي ارتضته غالبية السودانيين، ويرجع انتشار مذهب الإمام مالك إلى أن معظم المهاجرين إلى السودان كانوا من العرب القادمين من صعيد مصر الذي عرف أهله بإتباع ذلك المذهب، كما أن العلماء الأوائل والفقهاء سواء من درس عنهم في مصر كمحمود العركي، وإبراهيم البولاد، ومحمد صغيرون وتلاميذهم كانوا من أتباع مذهب مالك، كما أن علماء المغرب الذين قدموا إلى السودان كانوا من المالكية.

وقد اعتنقت قلة من السودانيين مذهب الإمام الشافعي، ويعتبر الشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي الذي برز في الفترة 1729–1811 من المؤسسين لتيار التصوف في السودان الغربي والأوسط امتد أثره إلى السودان النيلي في نشر الطريقة القادرية، إلى ذلك أسهمت الطريقة التيجانية التي دخلت إلى السودان في وقت مبكر في زيادة الوصل وقد كان للشيخ محمد مختار الشنقيطي من المؤسسين للطريقة التيجانية في السودان[17].

إن قيام سلطنة الفونج يمثل أثر العقيدة الإسلامية وتعميق مفاهيمها على يد العلماء والمتصوفة، وقد تقدم العلم بالإسلام، وثقافته في الجزء الشمالي من سلطنة الفونج، وهو الجزء الخاضع لملوك العبدلاب، والذي عرف بموروثة الحضاري العريق، الأمر الذي هيأ لهذه المنطقة أن تحتل مكان الصدارة للإشعاع الإسلامي الحضاري لباقي إقليم سودان وادي النيل، حيث هاجر منهم العلماء ورجال الطرق الصوفية للمناطق الطرفية والحديثة العهد بالإسلام، حاملين معهم نشر الدعوة الإسلامية والتي حملوا مشعلها في المرحلة الثانية، وقد كان جلهم من رجال الجيل الجديد من النوبة المستعربين أو من العرب الذين استوطنوا هذه الديار من عشرات السنين، كالدنقلة، والمحس، والشايقية، والجعليين[18]. لم يختلف انتشار الإسلام في كردفان ودارفور عن النهج الذي سار عليه في أواسط السودان، إلا أنه كان أكثر بطؤا، فقد تم على يد المهاجرين العرب الذين وفدوا من الشمال ومن الشرق واختلطوا بالسكان المحليين، وكذلك تم على يد التجار والمهاجرين الوافدين من الشمال الإفريقي" وأواسط بلاد السودان" والذين وضعوا اللبنات الأولى لنشر العقيدة الإسلامية، ثم بدأت المرحلة الثانية بقيام مملكتي الفور وتقلي وقد شجعت هذه الممالك كما فعل الفونج من قبل هجرة رجال الدين إليهما، فقام هؤلاء بنشر الإسلام، وكان معظم هؤلاء العلماء من الدناقلة، ومن أفراد المجموعة الجعلية، ومن مصر والحجاز، وأواسط بلاد السودان[19]. وما أن حل القرن التاسع عشر الميلادي حتى كانت العقيدة الإسلامية قد عمت معظم بلاد سودان وادي النيل، وانتشرت الثقافة الإسلامية ربوع البلاد، وكان التأثير الأكبر إسلاميًا، في حين كانت اللغة العربية بعد اللهجات المحلية، وإن ظلت على الدوام تتقدم، بيد أن العنصر العربي لم يكن له الدور الحاسم في تلك الديار، إذ أن قوى اجتماعية أخرى، مثل التجارة، والاحتكاك الحضاري، كانت هي التي تعمل لصالح الإسلام واللغة العربية[20].

خامسا/ السمات المشتركة بين المغرب وسودان وادي النيل

هناك سمات مهمة جعلت من التواصل الثقافي بين بلاد المغرب الكبير وسودان وادي النيل، الذي يتسم بخصوصياته النابعة من الجوار الجغرافي والتاريخي المشترك كأداة للثقافة المشتركة، تتصف بطابع معين تغلب عليه رمزية الدين واللغة واللباس والطعام والجنس[21].

1- انتشار اللغة العربية

انتشرت اللغة العربية وازدهرت بعد توقيع (معاهدة البقط)، وفتح بلاد النوبة لهجرة القبائل العربية مع حركة الفتوح الإسلامية، ولم يحدث ذلك في يسر وسهولة، بل صارعت كثيراً من اللغات واللهجات التي كانت سائدة في تلك المناطق ونافستها، وخرجت من صراعها ذلك متغلبة عليها على مرّ الأجيال، وعبر الحقب التاريخية المختلفة، وقد ساعدت عوامل كثيرة في ذلك الانتشار، أهمها الآتي:

أ- العامل الديني: فحيثما انتشر الإسلام واستقرت قواعده انتشرت اللغة العربية، وقد ساعد على ذلك ما أجمع عليه أغلب أئمة المسلمين من عدم جواز ترجمة القرآن الكريم، وعدم جواز كتابته بغير اللغة العربية، وعدم جواز القراءة بغير اللغة العربية في الصلاة، فهي لغة العبادة في الإسلام، لذا أقبلت عليها الشعوب المختلفة التي اعتنقت الإسلام، تحاول تعلّمها، ومعرفة ألفاظها ومعانيها، ومعاني القرآن الكريم، حتى تصحّ العبادة، وتُؤدى على الوجه الصحيح المطلوب[22].

ب- عوامل لغوية ساهمت: في انتشار العربية؛ لأن انتشار الدين وحده ليس كافياً في تعليل سرعة هذا الانتشار؛ إذ إنّ انتشار الإسلام كان أسبق من تعلّم اللغة العربية بعدة قرون، وهذا العامل هو وجه القرابة بين اللغة العربية وبين أخواتها الساميات في كثير من المظاهر الصوتية واللفظية والنحوية من جهة، وبين اللغات السامية والحامية من جهة أخرى، مثل ذلك التشابه بين اللغات السامية والقبطية في الضمائر، وأسماء العدد والتثنية وقواعد الصرف.

ج- العامل الحضاري: فالمعلوم أنه إذا التقت لغة ذات تراث حضاري متفوق مع أخرى حظها من التراث قليل فإنّ الأمر ينتهي بسيادة اللغة العريقة التراث والثقافة، وهذا ما حدث في كثير من المناطق التي انتشر فيها الإسلام في القارة الإفريقية[23].

وبالنسبة لبلاد النوبة؛ فإنّ (معاهدة البقط) قد ظلت تمثّل الركن الأساسي في مسار العلاقة بين شمال إفريقيا وبلاد النوبة، وفي فترة سريانها تسربت المؤثرات الإسلامية في هدوء، أدى في نهاية الأمر إلى تغيير مسارها الديني والسياسي والاجتماعي، ولم يحدث ذلك التأثير إلا عبر مراحل مختلفة، وفترات طويلة من المجاهدات والإسهامات التي قدّمها المهاجرون من بلاد المغرب

من الدعاة والتجار والأفراد والرعاة، وقد تبدّت تلك المؤثرات في كثير من مظاهر الحياة النوبية، ولم يعرف النوبيون الذين اعتنقوا الإسلام في هذه الفترة المبكرة أداء الشعائر الإسلامية المفروضة على الوجه التام المطلوب، ففي الصلاة مثلاً لم يعرف قطاع كبير منهم من الصلاة إلا التهليل والتكبير، ومرد ذلك إلى قلّة الفقهاء والمتعلمين، أو المتخصصين في علوم اللغة ممن وفد إلى النوبة، إضافة إلى أنّ البلاد لم تشهد حركة علمية واسعة لها نشاطها، ولم تكن كذلك ثرية ثراء الحركات العلمية التي قامت في بقية البلدان الإسلامية،

ولم يكن لعلمائها شهرة وصيت مثلما كان للعلماء في تلك البلاد.، إضافة إلى ذلك فقد أسهم الشيوخ – من الدعاة الذين وفدوا من بلاد المغرب إلى النوبة، واستقروا في دنقلة، وقرروا البقاء هناك – مساهمة كبيرة في نشر تعاليم الإسلام واللغة العربية، بعد أن هالهم ما رأوا من جهل مستشر بتعاليم الدين والعقيدة الصحيحة، فأخذوا يعمرون المساجد، وينشؤون المدارس وحلقات تعليم القرآن الكريم وحفظه، فكان لتلك الحركة العلمية المغربية على بساطتها، وضعفها أثر واضح في انتشار اللغة العربية، وذلك بإقبال الأهالي على هؤلاء الدعاة للتعلم منهم والتتلمذ على أيديهم بسودان وادي النيل [24].

2– رمزية الدين

في هذا الإطار، تشير الكتب التاريخية إلى عراقة الصلاة وتطورها عبر العصور بين دول جنوب الصحراء الإسلامية التي قامت في السودان الغربي والأوسط، وبين دول شمال إفريقيا، ولم تقف الصحراء عائقا دون التواصل، بل شكلت جسرا ربط بين الطرفين وعبر هذا الجسر تدفقت الهجرات المتبادلة، حيث نمت وازدهرت الصلات التجارية والثقافية والسياسية والاجتماعية، ويبدو جليا أن لهذه الصلات أسسا دينية. وبما أن الإسلام كان ديانة منطقة شمال إفريقيا، فإن التواصل الثقافي بين المغرب العربي ومنطقة السودان النيلي ارتكز على الدين الإسلامي، عقيدة ونظام حياة. ويعتبر الفتح الإسلامي لإفريقيا السودانية حقبة مهمة في تاريخ المنطقة، إذ أنها مرحلة تاريخية تميزت بتطور عمليات التفاعل الثقافي والحضاري والتبادلات التجارية بين منطقة السودان الغربي وشمال إفريقيا [25].

3- رمزية اللباس

لعل أهم أنواع اللباس العربي التي تنتشر في منطقة "الساحل" هو الزي المغربي والليبي والتونسي والسوداني والسعودي والعماني، من جلابيب وكندورات وقلانيس... وكلها تستقطب اهتمام الأفارقة كما أنها تساهم في إعادة الاعتبار إلى هذا الجزء من الثقافة العربية، فعلى أثر ظهور "الصحوة الإسلامية" في المنطقة تبنت بعض الجماعات الدينية قرارات تدعو المسلمين والمسلمات إلى الالتزام باللباس العربي (وخاصة في نموذجه السعودي) وشجعت بعض التجار على استيرادها من الدول العربية بغية جعلها نموذجا للزي الإسلامي. ويبدو أن الأفارقة المسلمين قد اقتنعوا بأهمية هذا اللباس والحاجة إلى تعميمه بواسطة حملات دعائية يقوم بها بعض أئمة المساجد والفقهاء والوعاظ في الإذاعات والتلفازات. ويكفي التجول في إحدى المدن الإفريقية المعنية للتأكد من وجود ملامح أولية ودلائل لا يرقى إليها الشك تعبر عن ظهور الأزياء العربية انتشارا في إفريقيا الغربية المسلمة. وهي زي استلزمته تعاليم وتقاليد التفكير الديني الإفريقي[26].

فمن المعروف أنه من أهم فرائض الإسلام على المسلمين فريضة الصلاة. ومن مستلزمات الصلاة في تصور المسلم الإفريقي السترة الكاملة، والتي لا يوفرها الثوب إلا إذا كان واسعا فضفاضا وطويلا، يغطي جميع عناصر تأثير اللباس العربي في أفريقيا الغربية المسلمة. وما ذكر عن الذكور ينطبق تماما على الإفريقيات المسلمات. ونعتقد أن اقتباس الأفارقة لبعض موضات الأزياء والفنون العربية لا يشكل مأخذا عليهم. وخاصة إذا عرفنا بأنهم يأخذون، في بعض الحالات، ما يلائم الظروف التي تحيط بهم. كما أنهم يطوّرون بعض الأزياء، كالكندورة مثلا، حسب ما يقتضيه الجو المحلي[27].

4- رمزية الطعام

إن مختلف أنواع الأطعمة الموجودة في العالم العربي (مثل أنواع المشتهيات والشكشوكة، والأكلات بالمرق والأكلات بالعجائن واللحوم المقلية ...) موجودة كذلك في الدول الإفريقية، وخاصة المجاورة للعرب. فالكوسكوس والطاجين واللوبيا والعدس والحمص والملاوي ومختلف أنواع الزيوت والمكرونة ...الخ بالإضافة إلى الفواكه والخضروات. ويتم نقل هذه المواد إلى المدن الإفريقية

من خلال تجارة الاستيراد التي تخصصت فيها بعض الشركات والتجار الأفارقة. فعندما ينتقل ساكن في سَبْهَا إلى أغاديس للاستقرار فيها فإنه لا يحس بأي تغير أو تبدلٍ في الأطعمة التي تعوّد على تناولها في سبها. إذا، يمكن القول بأن لرمزية المائدة حضورا قويا في دعم وترسيخ التواصل الثقافي بين المغرب العربي وبلاد النوبة[28].

5- رمزية الحراك الاجتماعي

تمثل المصاهرة عموما حلقة مهمة من الحلقات التي تمر من خلالها عمليات التفاعل بين ثقافتين. وللتزوج دور مهم في توسيع وانتشار مجال العلاقات والمبادلات بين البلدان والشعوب، إذا ما كان للعلاقات الثقافية بين العرب والأفارقة أن تزدهر وتصبح على ما هي عليه في الوقت الحاضر لولا الحراك الاجتماعي ذات الوسائل المتعددة. إن تطور العلاقات الثقافية بين الشعوب العربية والأفريقية وما بلغته من حجم هائل بالنسبة لمجمل الدول الإفريقية المسلمة والعربية اليوم يعود إلى حد كبير، إلى الإمكانات الكبيرة التي وفرتها علاقات المصاهرة والتزاوج تلبية لاحتياجات هذه العلاقات. لقد كان ولا يزال هناك ترابط وثيق بين تطور علاقات الجوار وتطور التفاعل الثقافي، وسيستمر هذا الترابط بشكل أوسع كلما توسعت علاقات الجوار وتعددت ميكانيزماتها[29].

أهم نتائج الدراسة

1 - العلاقات الثقافية بين السودان الشرقي والمغرب علاقات ضاربة الجذور.

2- الأثر المغاربي واضح حضارياً وثقافياً في السودان النيلي.

3- الإسلام وطد العلاقات الثقافية والحضارية بين البلدين.

4- للمذهب المالكي أثر بالغ في توثيق العلاقات السودانية المغاربية.

5- التواصل المغاربي السوداني له في تطور الثقافة الإسلامية السودانية.

توصيات الدراسة

1- اجراء دراسات متعمقة في التواصل الثقافي بين البلدين

2- جمع الإرث التاريخي والثقافي بين البلدين في متحف واحد.

3- على وزارات الخارجية بين البلدين تمتين العلاقات وتطويرها في الجانب الحضاري.

4- على وزاراة الشؤون الثقافية بين البلدين توثيق العلاقات الثقافية وتقديمها في محاضرات وندوات مسموعة ومرئية.

5- توفير مكتبات خاصة بالتنوع الحضاري والثقافي حول العلاقات السودانية المغربية.

الهوامش:

1- جبريل أبو بكر علي، **طرق القوافل وأثرها في تقوية العلاقات الثقافية**، أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1998م، ص85.

2- زكريا محمد الرباني، **مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في منطقة السودان الغربي**، عمل غير منشور، الجزء الرابع، ص26.

3- مصطفى مسعد: **الإسلام والنوبة**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1966م، ص 106، 107.

4- المقريزي: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1970م، ج 1، ص 195.

5- الشاطر بصيلي: **معالم تاريخ سودان وادي النيل**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1969م، ص 8.

6- محمد عوض: **السودان الشمالي سكانه وقبائله**، القاهرة، 1951م، ص 28.

7- ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج 1، تحقيق: مصطفى عبد الستار (وآخرين)، مطبعة الحلبي، مصر، 1936م، ص205.

8- مصطفى مسعد: المرجع السابق، ص 106 – 109.

9- يوسف فضل حسن: **الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام**، بحث منشور ضمن إصدار بعنوان: الإسلام في السودان عن جماعة الفكر والثقافة الإسلامية، دار الأصالة، الخرطوم، ص 3.

10- ربيع محمد القمر: **قراءة جديدة في نصوص (معاهدة البقط)**، مجلة الدارة، ع/02، الرياض، السنة الحادية والعشرون، محرم – صفر- ربيع الآخر 1416هـ، ص 162.

11- عبد المجيد عابدين: **القبائل العربية في وادي النيل، بحث في ذيل كتاب البيان والإعراب للمقريزي**، القاهرة، 1961م، ص 142.

12- Macmicheal. H.A**: The Coming of Arabs in Sudan AESW**, London, 1935, pp. 46 – 47.

13- محمد بن عمر التونسي: **تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان**، تحقيق: خليل عساكر ومصطفى مسعد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965م، ص 6.

14- عوض خليفات: **العرب والنوبة في صدر الإسلام**، بحث بمجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، رجب 1402هـ / 1982م، ص 63.

15- محمد إبراهيم الصحبي: **التجارة والاقتصاد عند العرب**، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، 1969م، ص 1 – 4.

16- مصطفى مسعد: **البجة والعرب في العصور الوسطى**، مجلة كلية الآداب، ع/02، القاهرة، مجلد 21، ص 29.

17- شوقي الجمل: **تاريخ وحضارات السودان**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1969م، ج 1، ص 254.

18- حسن محمد جوهر وحسين مخلوف: **السودان.. أرضه، تاريخه، حياة شعبه**، دار الكتب، مصر، 1970م، ص 53.

19- مصطفى مسعد: **امتداد الإسلام والعروبة إلى وادي النيل الأوسط**، المجلة التاريخية المصرية، ع/05، القاهرة، 1959، ص 82.

20- أحمد بن الحاج: **مخطوطة: كاتب الشونة**، تحقيق: الشاطر بصيلي، دار أحياء الكتب العربية مصر، القاهرة، (بدون تاريخ). ص 45.

21- Michael. H.A: **A History of the arabs in the Sudan**, Cambridge, 1922 1, p. 197.

22- عبد الله عبد الرحمان الأمين: **العربية في السودان**، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967م، ص 17.

23- جون لويس بوركهارت: **رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان**، ترجمة: فؤاد اندراوس، مطبعة المعرفة، ص 137.

24- محمد فوزي مصطفى: **الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان**، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، 1968، ص 23.

25- Holt, A Modern History.P.18 . Y.F.Hassan, The Arabs, pp.128-133.

26- يوسف فضل: **مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي 1450–1821م**، القاهرة، 1971م.

27- المصادر السودانية الأولية قبل المهدية، مجلة الدراسات السودانية ع/1، المجلد 3.

28- محمد فوزي مصطفى، المرجع السابق، ص 23.

29- مصطفى مسعد، **امتداد الإسلام والعروبة**، المرجع السابق، ص88.